مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد6 ، العدد13، (مارس2018) EISSN : 2600-6405

قضايا العالم العربي والاسلامي في الفكر السياسي للحركة الوطنية - مصالي الحاج والشيخ عبد الحميد بن باديس أنموذجا

الأستاذ: خلادي بلهادي — **الدكتور غازي جاسم الشمري**
جامعة طاهري محمد – بشار — **جامعة أحمد بن بلة وهران**

الملخص:

شكل الفكر السياسي عند كل من مصالي الحاج و الشيخ عبد الحميد بن باديس مجالا رحبا لأساليب النضال المختلفة في الدفاع عن الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشعب الجزائري والشعوب المغاربية والاسلامية (مغربا ومشرقا) وحدد كل منهما رفضه التام لكل أشكال السيطرة الاستعمارية و إبداء مواقفهما من كل تحدياتها مع رسم الهدف الأسمى لنضالاتهما وهو الاستقلال.

الكلمات المفتاحية: مصالي الحاج- عبد الحميد بن باديس - الفكر السياسي – الاستعمار – النضال – الاستقلال- الشعوب

Abstract :

The political thought of both Masali El Haj and Sheikh Abdelhamid Ben Badis constituted a wide range of different methods of struggle in defending the political, economic and social rights of the Algerian people and the Maghreb and Islamic peoples (both Maghreb and the East), and they determined their total rejection of all forms of colonial domination and their positions. With the ultimate aim of their struggle - independence.

key words : Masali El Haj - Abdelhamid Ben Badis - Political Thought - Colonialism - Struggle - Independence - Peoples

مقدمة:

شكلت الحركة الوطنية في الجزائر منذ بداية القرن العشرين أسلوبا جديدا في حلقات نضال الشعب الجزائري، ظلت مرتكزاته متجذرة في الفكر السياسي الجزائري

عبر محطاته التاريخية ليتبلور بعدها في خضم مختلف التحولات التي عرفتها البلاد العربية والإسلامية في ظل الاحتلال وممارساته الاستعمارية.

فكانت مجمل البرامج و الطروحات السياسية التي عبرت عن قناعاتها الفكرية المتميزة والمنبثقة عن هموم الشعب والأمة العربية والاسلامية وتحديات الإدارات الاستعمارية، قد أخذت طابع التنوع في الأفكار كونها نتاج إفرازات مجريات أحداث مختلفة، لتترجم بعدها فكرا سياسيا مستقلا نابعا عن الظروف المختلفة التي عايشتها وفق محيطها و حقيقة تحولات المجتمع الجزائري برمته، وبذلك تعد التجربة السياسية لدى كل من مصالي الحاج والشيخ عبد الحميد بن باديس خلال مساراتها التاريخية، الوعاء الذي استوعب ثوابت الأمة وأفقها السياسي.

- **المغرب العربي في الفكر المصالي والباديسي:**

1- الفكر المصالي:

لقد تقاسمت البلاد المغاربية بشكل جلي واقع الاحتلال الفرنسي على العموم،الأمر الذي طرح فكرة النضال في إطار الشمال الافريقي منذ حركة الأمير خالد.

وما يثبت ذلك التظافر في الجهود النضالية حضور ممثلان باسم نجم شمال إفريقيا هما مصالي الحاج الكاتب العام للنجم والشاذلي خير الله عضو الحزب الدستوري الشيوعي من تونس، حيث قدم الأول مطالب الجزائر ومطالب المغرب وأفصح عن تعسف الامبريالية الفرنسية في الجزائر، وقدم الثاني المطالب الأساسية لتونس تضمنها تصريحه باسم تونس الفتاة و الذي ذكر فيه تاريخ الحماية. [1]

ناضل مصالي الحاج في كثير من الحالات من أجل استقلال الجزائر والوحدة المغاربية، فكانت مداخلاته المتتالية في مختلف التظاهرات تشير لذلك وأكدته أيضا تقارير الشرطة الفرنسية. [2]

فكان يرى من الضرورة بالنسبة لشعوب المنطقة محاربة فرنسا و لا يجب الموت من أجلها، وصولا إلى الهدف الأسمى وهو الاستقلال الذي هو مطلبا جوهريا، وهوالمنهج الأوحد للنجم ضمن سياق مغاربي حيث دلّت المناشير التي وزعت في تونس على أهمية الوحدة التي أثارتها جريدة الإقدام التي تعرضت الى توقيف توزيعها بتونس. إلى جانب ذلك نشره بيان عنوانه" من أجل استقلال شمال إفريقيا"، رافضا

العمليات العسكرية الفرنسية في الأطلس المتوسط وتافيلالت مناديا يا شعوب شمال إفريقيا انهضوا وتصدوا لحرب المغرب. (3)

كما جاء نداء "الإقدام" بعد أن 'طَلب من الجزائريين والتونسيين رفض التجنيد الإجباري ثم من المغاربة الالتحاق بالمقاتلين فدعا إلى تشكيل جبهة موحدة ضد حرب المغرب. (4)

لقد كانت هناك قناعة راسخة بأن تحقيق الاستقلال للبلدان المغاربية لا يمكن أن يكون إلا بالدعم البيني والتظافر وتكثيف الجهود والإرادة،بل أنه من الواجب دعم حركات التحرير الشامل لها، كما ثبتت مختلف النداءات المتلاحقة فعاليتها وتجسيدا لها على أرض الواقع حيث سافر شوقي مصطفاي عضو حزب الشعب 1941 الى المغرب والتقى بمناضلين من الكتلة الوطنية المغربية في مراكش وبعض الوطنيين في الدار البيضاء وتمت المحادثات حول التعاون والتنسيق بينهما من حيث التخطيط والإمكانات المادية. (5)

وانتقل موفدين من حزب الشعب الأمين دباغين ومبارك فيلالي باتجاه وجدة ومنها الى مراكش ،فاتصلا بالمناضل المهدي بن بركة الذي كان عضوا قياديا في حزب الاستقلال أين قدم موافقته المبدئية وتم أخيرًا الاتفاق بين الأحزاب الثلاثة على جانبين أساسيين وهما:

. تهيئة الوضع العام من أجل استقلال الاقطار الثلاثة ولو بالعمل المسلح .

. عدم التفاوض مع فرنسا أو اسبانيا بشكل منفرد ودون تنسيق

وجدّد تيار مصالي الحاج اتصالاته بعد الحرب العالمية الثانية بحزب الاستقلال المغربي والذي كان يرى بضرورة تكوين جبهة بين الأحزاب الثلاث :حزب الشعب،حزب الاستقلال و حزب الدستور الجديد قصد تحقيق الاستقلال وتجنب أي مفاوضات منفردة مع فرنسا. (6)

أما بالنسبة لتونس تم التواصل مع أعضاء من حزب الدستور الجديد ومنهم المنجي سليم الذي تمت موافقته على التنسيق العسكري في الجنوب والتنسيق السياسي في الشمال من خلال المظاهرات.

ورغم تلك الجهود والنوايا الصادقة من قبل التيار الاستقلالي الجزائري في لم شمل الدول المغاربية رغم تكرار اللقاءات معها منها لقاء طنجة 1949 إلا أن كل من تونس والمغرب لجأتا إلى توجه مخالف فيما بعد. (7)

لم يكن إصرار الأحزاب الوطنية الثلاث المغاربية على الوحدة في النضال داخل كياناتها فحسب،بل أنها بادرت بتقديم مذكرة مشتركة للأمانة العامة للأمم المتحدة 2نوفمبر 1948 أين عالجت مقدمتها الطويلة الوحدة المغاربية وذكرت بأن نجم شمال إفريقيا قد شكل أرضية حقيقة للعمل المشترك ضد السياسات الاستعمارية الفرنسية وبالتالي التأكيد على إيمانها بمبادئ الأمم المتحدة وإرادتها في الكفاح بكل الوسائل المتاحة.

ثم عادت الأحزاب المغاربية مرة أخرى 3 فبراير 1952 تحت ضغط الظروف الصعبة التي عاشتها مع الاحتلال إلى إبرام ميثاق الشمال الإفريقي وفيه تعهدت بتعزيز المقاومة وتنسيق الأعمال والنشاطات والمتابعة الدورية لمختلف الأحداث الداخلية والخارجية.

وفي سياق الدعـوة إلى الوحدة والنضال المشترك فقد أولت "جريدة المنار" [8] اهتماما كبيرا لذلك ، أين دعت في افتتاحية عددها الأول إلى توحيد السياسة المغاربية باعتبار أن الأقطار الثلاث مستعمرة من طرف فرنسا حيث أوضحت مختلف المقالات التي نشرت بها أهمية ذلك والضرورة القصوى من أجل تحقيق الأهداف السامية لشعوب المنطقة. [9]

2- الفكر الباديسي:

كان ابن باديس ينطلق باتجاه دول منطقة المغرب العربي من مقومات الشخصية الجزائرية ،اذ يتدرج الى تحديد المدار الصغير لهذه القضية فيقول في هذا الصدد « نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا..» [10]

فتونس بالنسبة له لم تكن بعيدة عن وجدانه و فكره إن لم نقل أنها كانت الجغرافيا الخلفية له في تعليمه كطالب ومبتدئ في ممارسة التدريس واحتكاكه بالعديد من العلماء أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي لازمه قرابة ثلاث سنوات ثم الشيخ بشير صفر وغيرهم الذين جمعهم جامع الزيتونة ، الذي انصهرت فيه جل اهتماماتهم بقضايا بلدان المنطقة المغاربية أو الشمال الإفريقي على العموم، وبذلك أصبح لمؤسسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رؤية إقليمية في مسار النضال وبعدا مغاربيا في نضالاتها تزامنا مع نضالات الحركة الوطنية. [11]

لقد ساهم العلماء إلى حد كبير في إعطاء الصيت المغاربي لنشاط ابن باديس وآفاق فكره، بل عملوا على توثيق الصلة بين بلدان المغرب العربي والعديد منهم من

ترك بصماته الفاعلة في النشاط السياسي للحركة الوطنية التونسية، و مكّن بن باديس لتلك الروابط من التطور والتناسق منذ أن عاش في تونس وهو طالبا ومعلما بجامع الزيتونة مدة أربع سنوات.

وأكد على ذلك التوجه في الخطاب الذي ارتجله بمناسبة إحياء ذكرى وفاة البشير صفر ربيع سنة 1937 «أصرح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأكون جنديا من جنود الجزائر». (12)

كما أبدى اهتمامه الكبير بتونس وبمجريات التحولات التي طرأت عليها مركزًا على علمائها الذين دعاهم الى ضرورة إصلاح المجتمع وتدارك الأوضاع التي كانت تهدد كيان الأمة التونسيةّ و ضرورة الخروج عن الصمت الذي هم فيه والشعور بقضايا الأمة.

ولعل المقال الذي عنونه بـ « إلى علماء جامعة الزيتونة » يحمل الكثير من تلك الهواجس والشعور العميق بالانتماء إلى الأمة التونسية، محملا فيه كامل المسؤوليات الدينية والأخلاقية والسياسية لهم تجاه مجتمعهم، على أن يظهروا الحق و يعملون على تعبئة المسلمين. (13)

وما يؤكد ذلك التواصل البيني بين تلك الأطراف المختلفة في كلا البلدين، ذلك الارتياح الكبير تجاه ما ينشر على صفحات المجلة الزيتونية معتبرا ذلك خطوات هامة في الطريق الصواب .

وعبر أيضا عن فرحته وفرحة الشعب الجزائري عامة بعودة الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي من منفاه يوم 16 جويلية 1937 من خلال البرقية التي بعث بها إلى تونس والتي جاء بها « إن جمعية العلماء الجزائريين تحيي بكل فرح وسرور عودتكم من منفاكم وتساهم بقسط من فرح وسرور إخوانها التونسيين المحتفلين بعودة الزعيم المحبوب المحترم الذي ضرب المثل الأعلى في الاخلاص والتضحية » (14)
ومن أجل توطيد تلك العلاقات المميزة فقد ذهب ابن باديس لتحيته باسم الجمعية، و نظمت في تونس احتفالات مرحبة بقدومه للتهنئة والتآزر، مما جعل الصحافة الفرنسية ترى في هذا الحدث أمر غير طبيعي وموقف واضح تجاه الإدارة الاستعمارية، ورأت أيضا في ذلك نوع من التآمر على الوجود الفرنسي بالمنطقة، وهي دعوة صريحة إلى توحيد الجهود بين مختلف الأقطار المغربية.

وما يؤكد استمرارية ذلك التواصل فان جمعية العلماء المسلمين قد بيّنت مطالب جمعية طلبة شمال افريقيا التي كان مقرها باريس، إلى درجة أنها وظفت مؤتمريها المنعقدين بالجزائر 1932 و 1936 لصالح قضايا الجزائر والمنطقة ،فكانت الخطابة فيهما تصب في تلك المواقف الموحدة للشعبين وشعوب المنطقة عامة، وما زاد من أهمية ذلك حضور ابن باديس والإبراهيمي والعقبي مما أطفَ على الحدثين وَقعاً آخر.

ولم تنقطع تلك العلاقات البينية بل وطدت من حين لآخر ،ومن مناسبة لأخرى، كما هو الحال في المؤتمر الذي انعقد بتونس 1936 والذي حضره الزاهري ممثلا للجمعية أين قدم خلاله تقريرا هاما حول التعليم مما جعل الادارة الفرنسية من خلال تقاريرها تؤكد أن جمعية الطلبة الزيتونيين كانت بمثابة الناطق الرسمي لجمعية العلماء المسلمين في تونس. (15)

ووجدت تونس كل الدعم من أشقائها الجزائريين خلال مراحل متتالية من نضالاتها إذ أن الابراهيمي بعد الحرب العالمية الثانية ساند إضراب الطلبة الزيتونيين من أجل إصلاح التعليم والذي كان إضرابا معبرا عن رفض الأوضاع التعليمية التي طالما نبّه لها الشيخ بن باديس . (16)

كما وطدت الصلات بالحزب الدستوري التونسي الحر، الذي كان له تضامن واسع مع عمال المغرب العربي خاصة خلال الإضراب الذي نظمه 20 نوفمبر 1937 مؤازرة للشعب الجزائري، مما جعل بن باديس يقدم عرفانه للدستوريين شاكرا لهم موقفهم المؤيد في رسالة موجهة لهم معتبرا هذا التوجه هو تجسيد للوحدة العربية(17)

لقد كانت لتونس مكانة خاصة في نفس ابن باديس "حقا أن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه الا هوى تلمسان "(18)

وتأثر أيضا في حياته العلمية ودعوته الإصلاحية بفكرة بناء المغرب العربي حيث قرأ للعديد من أعلام المدرسة الأندلسية المغربية في مجالات متعددة منها الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، مما جعل تلك المعارف منهلا للكثير من تلامذته.
اختار كتاب الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للعلامة القاضي عياض في أن يكون جانبا من عملية التدريس بقسنطينة 1913 وحقق مخطوط

كتاب العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بقطب المغرب كما سماه بنفسه الامام ابو بكر بن العربي.

وتأثر أيضا بأفكار هذا الاخير وبالإمام أبي عمر بن عبد البرالقرطبي وأخذ عنهما الكثير خاصة في ما يتعلق بالاسلوب الذي انتهجه في اصلاح طرق التدريس التي كانت سائدة في عصرهما بالاندلس.

ومن صور عملية تفعيل التواصل مع المغرب الأقصى ما كتبه في الشهاب عن ذكرى الظهير البربري او المرسوم الذي أصدره سلطان المغرب 16ماي 1930 يفرض من خلاله على القبائل البربرية ترك التحاكم الى الشرعية والاعتماد على العرف،فكتب يقول "لقد دأب إخواننا المغاربة على إحياء هذه الذكرى المؤلمة كل يوم 16 ماي 1930".[19]

وتوجه إليهم ببيان يعبر فيه عن موقف علماء الجزائر، مؤكداً مشاركتهم ومساندتهم لإخوانهم المغاربة في هذا الشأن، مقدما لهم النصيحة بمواصلة الجهاد فيقول:"وأننا لنشارك قلبا وقالبا شقيقتنا المغربية في هذا الحداد الوطني الديني ونرفع أصواتنا إلى جانبها بالاحتجاج العميق والاستياء البالغ " ثم يقول "لرجال المغرب الأحرار كما يصفهم: إن هذه المظلمة لتزول عنهم إلا بفضل جهادهم ونضالهم واستماتتهم في سبيل كلمة الحق وتوحيد الصفوف"

ومن المواقف الداعمة للحريات الدينية تقديمه لاحتجاج في برقية لكل من وزير الخارجية الفرنسي والمقيم العام للرباط عندما أقدما على تعطيل الاحتفال بالمولد النبوي الشريف معتبرا ذلك الإجراء إهانة للإسلام والمسلمين [20]

كما أخذت شخصية تهامي الجلاوي مجالا وافرا من النقد والتهجم من قبل جمعية العلماء المسلمين لموقفه من العرش العلوي ومساندته للاستعمار الفرنسي على حساب الحركة الوطنية في المغرب.

و أبرق أيضا العلماء إلى السلطان محمد الخامس بعد عودته من منفاه مهنئين بهذا الحدث العظيم ثم توجه أيضا وفدا عال المستوى لاكتمال التهنئة باسم كل الشعب الجزائري[21]

ولم تكن تلك المواقف مختلفة عن المواقف باتجاه ليبيا المستعمرة أنذالك من قبل ايطاليا، حيث جعلت جمعية العلماء من كل قضاياها وأحداثها من أفراح وأقراح مجال اهتمام ومتابعة سواء من خلال المواقف أو المعالجة عبر ما كان ينشر

في جرائدها، فتعاطفت مع الليبيين في طرابلس الغرب وبرقة فيما ابتلوا به من سياسات استعمارية ايطالية قاهرة وظالمة وتجلى ذلك في دعوتها بعض الجمعيات الإنسانية لتلعب دورا في رفع الغبن عنهم وإيقاف الجرائم، فشعر الجميع بكل نداءات النجدة التي رفعها الليبيون الى إخوانهم المسلمين عامة من أجل التكاثف لرفع المظالم ووضع حد لسياسة القمع والقتل والتشريد وطمس للهوية[22]

ويبرز ابن باديس موقفه الداعم لليبيين في قوله "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبي هذا النداء الصادر عن القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ترتكبه ايطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابلس العربية المسلمة فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم وتنذرها بأن الضمير الاسلامي والعربي قد استيقظ من نومه[23]

- **المشرق العربي الاسلامي في الفكر المصالي والباديسي**

1- في الفكر المصالي:

لم تكن القضية الجزائرية في تصورات التيار الاستقلالي وفكر مصالي الحاج واقعا معزولا عن المحيط الإقليمي والعربي و الإسلامي في آن واحد،حيث أثيرت أهمية الجزائر في حوض البحر المتوسط وكيف أنها قلعة للحفاظ عن السلم،وأن الأطماع المتكررة في المنطقة خاصة لدى ايطاليا وألمانيا قد تسبب مشاكل مختلفة من شانها أن تعكر الأجواء السياسية مما يتطلب من الإدارة الاستعمارية الاقتناع بان سكان الشمال الإفريقي هم القادرون على حماية كيانهم، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا شعروا بأنهم يدافعون عن مصالحهم.

إن مقارعة ومحاربة الفكر الاستعماري في ايديولوجية التيار الاستقلالي كان السبيل الأوحد في حماية الشعوب من كل المؤامرات الاستعمارية، وجُسّد ذلك في رسالة الاحتجاج الموجهة إلى قنصل ايطاليا من جراء الاعتداء على ألبانيا "إن الشعب الجزائري والعالم الإسلامي يستنكر بشدة العمل الهمجي واللصوصي. [24]

لقد تضمن الاحتجاج صراحة مكانة العالم الإسلامي والدفاع عن كرامة شعوبه في إطار ما سمح به القانون الدولي وفي ظل الادعاءات بحرية الشعوب في تقرير مصيرها،وبالتالي الإقرار بتظافر الجهود مع جميع المسلمين ضد العدوان وكامل الأطماع التي تحاك ضد الدول الإسلامية [25]

وفي هذا الصدد أولت جريدة الأمة من خلال مقالاتها بقضايا سوريا وهي تحت الاحتلال الفرنسي فأبرزت نشاط الطلاب والإضراب العام في سوريا والاحتلال العام لدمشق وحلب ثم القوانين الاستثنائية التي فرضت عليها. [26]

و أعطى التيار الاستقلالي أيضا أهمية بالغة أخرى للقضية الفلسطينية حيث أكد أنها تدرج ضمن نضالات الشعوب من أجل استرجاع كيانها وحقوقها المغتصبة من قبل اسرائيل ولا يمكنها أن تعتبره صراعا عقائديا أو عرقيا كما ادعت بعض الأوساط اليهودية. [27]

وفي هذا الإطار أسست لجنة شمال افريقيا للتضامن مع ضحايا العرب لفلسطين 1938[28] وواكبت جريدة الأمة كفاح الشعب الفلسطيني مدعمة حقه في تقرير مصيره،كما رافعت حركة الانتصار من أجل دولة عربية حرة ومستقلة،واتخذ موقفاً ضد القرار المجحف لحقوق الشعب من قبل الأمم المتحدة ثم رفض الاعتراف باسرائيل وعدم القبول بالدولة الجديدة في هذه المنظمة الدولية. [29]

وقد شعر التيار الاستقلالي بعدم وجود استراتيجية في مواجهة العدو الاسرائيلي وغياب نضال موحد من أجل تحقيق الاستقلال ، مما جعل فكرة التضامن العربي و الإسلامي قضية جوهرية.

وقد جسّد ذلك عمليا بالمشاركة في العمليات الحربية حيث دعى أحمد مزغنة إلى إنشاء الهيئة العليا لإغاثة فلسطين. وأرسل في هذا الشأن متطوعون شاركوا في حرب 1948 وأسهم أيضا ذلك التيار في تشكيل لجنة شمال افريقيا للتعاون مع الضحايا الفلسطينيين في باريس سنة 1942[30] .

وحتى يتم التواصل المباشر بين مصالي الحاج ومختلف الفعاليات السياسية والعربية والإسلامية تم توضيح المواقف الجادة للتيار الاستقلالي والتفافه حول قضاياها المصيرية حيث أقام مصالي الحاج مأدبة لوفودها لدى هيئة الأمم المتحدة واستقبل حينها الأمين العام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام باشا وممثلي دول المشرق العربي والمنظمات السياسية والطلابية ووزير خارجية باكستان وقنصل اندونيسيا بباريس .

فحَيّ الوفود على تلبية الدعوة مبشرًا في خطابه أمام هذا الحشد على أن هذا الاجتماع هو رمز الوحدة وتضامن الشعوب العربية والإسلامية وأن قضاياها هي

قضية واحدة تتلخص في الحرية مما يستوجب الوقوف مع الشعب المصري والسوداني وغيره. (31)

2- في الفكر الباديسي:

أدرك الشيخ بن باديس بمعية علماء الجمعية أن الأمة العربية لها امتداد من المحيط الهندي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا مرتكزة في ذلك على فكرة القومية العربية وداعية الى التمسك بها "ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا،ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا"(32)

وفي هذا المنحى فقد استشعر بن باديس بالخطر الصهيوني محذرا من خطورة الزواج غير الشرعي بين الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية، الذي أنتج للكثير من اليهود الطمع الأعمى الذي وجههم الى فلسطين. حيث شرح الحالة الفلسطينية من وجهة نظره على أن الخصومة ليست بين عرب فلسطين، ويهودها ولا بين مسلم ويهودي على وجه الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانجليزي من جهة والإسلام والعرب من جهة أخرى والضحية فلسطين، موضحًا ذلك بقوله:" نريد الاستعمار الانجليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية لتقسيم الجسم العربي وحط قدس الإسلام، فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند جنود الانجليز وتجمع أموال الصهيون وتسفك الدماء البريئة وتلطخ بها الرحاب المقدسة" (33)

وحتى يعطي بن باديس لمثل هذه القضايا الإستراتيجية بعدها الديني والسياسي على كل المستويات، فانه ناصر القضية الفلسطينية عندما قررت اللجنة الملكية البريطانية تقسيم فلسطين سنة 1937 فأرسل رسالة احتجاج الى وزير خارجية فرنسا جاء فيها:"باسم الأمة الجزائرية أرفع احتجاجي الشديد ضد مشروع تقسيم فلسطين ذلك القطر العربي الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله وأعتبر هذا المشروع ضربة قاضية على حياة شعب ضعيف دافع طيلة سنين طويلة دفاع الابطال عن شرفه وحريته واعتداءا شنيعا على جميع الشعوب العربية الاسلامية" .

و بعث الإمام بن باديس برسالة إلى البرلمان العربي المجتمع بالقاهرة معربا لهم عن موقف الشعب الجزائري المساند مساندة بدون تحفظ للشعب الفلسطيني لكل

ما تسفر عنه أشغالهم، ودعا إلى تشكيل لجنة إغاثة تقوم بجمع تبرعات من مختلف أنحاء الجزائر وإرسالها للقدس حاثا على نصرتهم دوما وفي كل المناسبات الدينية خاصة مواسم إحياء ليلة الإسراء والمعراج[34] وبذلك تعاطف الشعب الجزائري ضمن مسار الفكر الباديسي مع فلسطين قبل مشروع التقسيم مما يؤكد عدم الانغلاق على العالم العربي و الإسلامي،أي منذ أن اقترف الاحتلال الانجليزي العديد من الجرائم ضد الفلسطينيين خاصة ظاهرة الإعدامات ضدهم، مما تطلب رفع لواء الجهاد من أجل استعادة الحرية "وكل جهاد خلا من الضحايا ومن الشهداء يعد جهادا عقيما"مع تمادي الانجليز في وحشيتهم وقمعهم للفلسطينيين فان هؤلاء قرروا الثورة سنة 1936 .[35]

فتصادفت تلك الأحداث مع انعقاد المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين حيث وقف الامام بن باديس ومن منبر المؤتمر مقدما تعاطفه مع أشقائه الفلسطينيين وما يلاقيه الأهل في القدس من دنس وتنكيل وغطرسة وطغيان متضرعا من الله أن يخفف عنهم، محتجا لكل من يشعرون بمشاعر الأخوة والإنسانية لعلهم يهتزون لذلك وينقذون الموقف حين قال: " فبلسانكم ولسان الجزائر كلها من الأجنة في بطون الأمهات الى الذين في الأجداث أرفع الشكوى الى الله ثم الاحتجاج الى كل من فيه انسانية من جميع الامم"[36]

وهو ما جعل جمعية العلماء تستمر في متابعة القضية خاصة بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة وإعلان قيام الكيان الصهيوني 1948 وما تلاه من حرب عربية مع الصهاينة، أين واصلت صحف الجمعية دورها الهام في التعبئة والتوعية بمخاطر المرحلة التي تعايشها المنطقة خاصة جريدة البصائر التي كان لها الدور الكبير في متابعة كل ما يجري على ساحة فلسطين من تحولات وتطورات وهو ما تضمنته مختلف المقالات التي كانت تنشر في قسم "منبر السياسة العالمية"المحرر باسم الكاتب أبو محمد الذي عبر بأكثر من طريقة عن تأييده للحل العسكري الذي اتخذته الجامعة العربية لانقاذ المسلمين.

كما أعد البشير الابراهيمي العديد من المقالات التي نشرها قي نفس الجريدة لسان حال الجمعية معتبرا فلسطين جزءا من الوطن العربي بقوله: "ان الجزائر وطنكم الصغير وان افريقيا الشمالية وطنكم الأكبر وان الرجل الصحيح الوطني هو الذي لا تلهيه الأحداث عن القيام بواجبات وطنه الأصغر والأكبر"[37]

ودعما لتلك المواقف فقد دعا الجزائريين أيضا الى صوم أسبوع في الشهر والتبرع بنفقاته لصالح فلسطين،فلقيت بذلك مواقف الجمعية استحساناً وإشادةً من قبل مفتي فلسطين محمد الامين الحسيني الذي بعث برسالة إلى البشير الإبراهيمي عبر له فيها عن تقديره بدور الجزائر في نصرة الفلسطينيين خاصة تلك المبادرة التي ثمنها والمتمثلة في تجنيد عدد من المتطوعين وإرسالهم إلى القتال.

وما جاء في تلك الرسالة مايلي: " فباسم فلسطين المجاهدة نقدم الى فضيلتكم والى أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء أعضاء المؤتمر أخلص الشكر على هذه القرارات الحليمة التي دفعكم إيمانكم وصدق غيرتكم الإسلامية إلى إقرارها راجين أن يكون لها أثرها المنشود وأن يكتب الله النجاح والتوفيق للجنة الإعانة فهبّ إخواننا الجزائريين الأكارم سراعا للاستجابة لندائها ولنجدة فلسطين الجريحة التي تقاسي الشدائد والمحن وتتعرض لمجازر بشرية لم يعرف لها التاريخ مثيلا"[38]

ان تلك المواقف ومختلف حملات التحسيس عبر التطورات التي عرفتها القضية الفلسطينية ،اعتبرت تحديا واضحا وكبيرا في ظل وقوع الجزائر تحت طائلة الإدارة الاستعمارية الفرنسية بقوانينها المتشددة .ورغم ذلك فان جهود العلماء المترجمة لقناعاتهم الفكرية كانت على محك الأحداث بكل ما يمتلكون من إمكانات مادية ومعنوية بما في ذلك القصائد الشعرية المدعمة والداعية إلى التحرير بالجهاد المقدس الذي هو دور جميع المسلمين عامة،إذ أن شاعر الجمعية محمد العيد آل خليفة كان قد مجد فلسطين بشعر كان يصعد عنده إلى قمة الوعي القومي عندما لوح بالثأر في مراحل تطور حرب 1948 .

كما اعتبرت مسألة الخلافة الاسلامية العثمانية عند بن باديس قضية جوهرية في رؤيته الفكرية لما لها من انعكاسات على الواقع العربي برمته، حيث خصّ بن باديس أربع مقالات بشأنها اثنتان منهما نشرهما بعد سقوطها مباشرة [39] بينما الثالثة والرابعة بعد 1930 [40] .

وما يجب ملاحظته والتركيز عليه هي تلك المضامين التي استوعبتها خاصة مسألتين اثنتين هامتين الأولى تعلقت بمشروعية تلك الخلافة في مراحلها الأخيرة والثانية فكرة تأسيس جماعة المسلمين بديلا عنها ويحدد في المقالين الأولين مفهومه وموقفه من الخلافة الاسلامية وجنايات الكماليين عليها وعلى المسلمين عامة وحتى من يأمنون بها ثم الحالة التي وصلت اليها والتي أدت إلى سقوطها وإنهاء وجودها

وكذا المحاولات الأجنبية المشبوهة في إعادة ترسيم أركانها الأمر الذي استدعى من المسلمين عامة بالضرورة الى الحيطة والحذر والبحث عن مخارج لذلك.

لقد أثنى على الخلافة العثمانية في عهودها الذهبية عندما كانت قوية جامعة للمسلمين متبنية الدين الإسلامي ومدافعة عنه بكل ما تملك من قوة مادية وعسكرية واصفًا إيّاها بأنها "رئاسة عامة على أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبي عليه الصلاة والسلام"[41]

وهو الشيء الذي جعل من عامة المسلمين في هذه الحالة يولون الدعم والتأييد والمؤازرة والديمومة لها حتى وهي في أضعف حال، كونها الاطار السياسي الذي يمكن الأمة الاسلامية من مجابهة كل الأطماع الغربية المحدقة بها .

إلا أن مجئ الكماليين وظهورهم على الساحة قد زاد من تفكك الأوضاع وتدهورها كونهم زعزعوا كيان هذه الخلافة وأفرغوها من مكوناتها الاساسية وانحرفوا بها بعيدا عن الطروحات الشرعية.

وفي هذا الصدد نجد الشيخ بن باديس كان مدركاً بقواعد النظام الإسلامي السياسي الأصيل أين انتقد "الخلافة الروحية" أي تنزيل منصب البابوية بالغرب المسيحي الكاثوليكي بمعنى أن ضوابط الخلافة وأسسها كما نص عليه الشرع لا بحراسة الدين وسياسة الدنيا وبالتالي بدعته في الخلافة باطلة وإقدامهم لإلغائها سنة 1924 قضى على أهم أركان النهضة والاتحاد وبالتالي كانت فاجعة العالم الإسلامي . [42]

وصرح في هذا المجال قائلا:"...وبعد فان الدين الإسلامي دين الحقائق والعلوم لا دين التقاليد والرسوم فلنرفض الأوهام وان لامتنا ولنقبل الحقائق وان ألمتنا –ولنقل عن عِلم وإنصاف أن خلافة الكماليين باطلة من أصلها وأن لا خلافة اليوم ،هذا وأن العالم الإسلامي لا يسكت عن مسألة الخلافة ولا يُهمل أمرها وأن أعظم الرجاء معلق على الأمة العربية أمة كنانة الله ،الأمة المصرية العزيزة مصدر العلم والتهذيب للعالم الاسلامي أيام بؤسها ومصدر الحرية والنهوض،هاته الأيام أيام عزها واستقلالها".

وقد حمل البرق نبأ تعلق علماء الأزهر الشريف على عقد مؤتمر إسلامي لهذا الأمر، وأن يكون من شهر مارس من السنة القابلة –وان غدا لناظره قريب –ونحن من المنتظرين والله ولي المؤمنين" [43]

لقد علق الإمام بن باديس بعض الآمال إلى عقد المؤتمر الإسلامي لإرجاع الخلافة إلى وجودها الشرعي، لكن سرعان ما خيبت آماله بعدما تبين أن الغرب يهدف الى تنصيب خليفة موال له فعبر عن موقفه تجاه ذلك لأن لا خلافة اليوم رافضا" كل خليفة تشتم منه رائحة الأجنبي كائنا من كان " [44]

وكل ما كان يراه من جراء هذه الأزمة التي مرت بها الأمة الإسلامية هو ضرورة تكاثف جهود الجميع من أجل التعاون لتحقيق نهضة هذه الأمة، وأن لا تكون مسألة سقوط الخلافة عاملا في إضعاف العزائم جاعلا من بقاء الإسلام وديمومته قاعدة للنهوض من هذه الكبوة وتضميد الجراح.

وعاد مرة أخرى إلى موضوع الخلافة بعد خمسة عشر سنة أي سنة 1938 بمقالين اثنين كما تمت الإشارة إليه سابقا بسبب بعض المحاولات العربية الداعية لتنصيب خلافة جديدة أين حدد موقفه منها واصفا إياها بأنها فقدت كل مواصفات الخلافة الحقيقية ولا مجال لإعادة بعثها ،فالكماليون كما يرى أنهم ألغوا نظاما حكوميا وأزالوا رمزاً خياليا والإسلام باق.

وبذلك لا بد من الرجوع إلى أهل الحل و العقد من جماعة المسلمين في حل قضاياهم المختلفة إذ يقول" ...فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة و تدخل الحكومات لا الحكومات الإسلامية و لا غيرها".[45]

ليس ما كان يعنيه هو فصل الإسلام عن النظام السياسي و إنما زيف الخلافة وما وصلت إليه هو الذي جعله يتخذ هذا الموقف.

وأما المقالة الرابعة التي كتبها على اثر وفاة مصطفى كمال أتاتورك، فقد حملت في مضمونها تعزية تركيا بوفاة احد رجالاتها العظام و الاشادة بما انجزه في تحرير الشرق الاسلامي كله. [46]

لقد حاول ان يُنصف كمال اتاتورك إلى كامل الحدود و أن يقدر أحسن تقدير قيمة الرجال من خلال أعمالهم و انجازاتهم محاولا بذلك إيجاد مبررات لهفواته وأخطاء الكماليين ،فكانت لهم مواقف في اعتقاده تجعله في مصاف العظماء،اذ انه أحيا الشرق الإسلامي كله و حثه على المقاومة واضعا حدا لأطماع الغرب [47]

وان كان الشيخ الإمام قد تأسف عنه موقفه إزاء الإسلام ،و لا يحمله في ذلك كامل المسؤولية، بل حمل من كانوا يمثلون الإسلام و يحكمون باسمه و هم خليفة المسلمين و أهم علماء الدين شيوخ الطرقية المتصوفون .

وأُعتبر ردود فعل كمال اتاتورك كانت ضد هؤلاء، مبرّرا ذلك بجرأته في ترجمة القران الكريم من اجل تيسير السبل أمام الأتراك لكي ينهلوا من هذا الاسلام. (48)

ولم يُحمّله وحده أيضا مسالة إلغاء الأحكام الشرعية و إن كان ذلك على حساب الأتراك الذين عانوا من ذلك، لكنه أعاد لهم الحرية و بإمكانهم أن يسترجعوا وقت ما يشاءون تلك الأحكام.

و قد يرى الدارس و المتتبع مواقف الشيخ ابن باديس من كمال أتاتورك والخلافة ،هو الجمع بين المؤيدين والرافضين لها،بل أنه حاول أن يخفف من وطأة الجميع على مستجدات تركيا و يضع حدا لكل الأطماع و الحملات تجاهها خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الثانية واضحة في الأفق، فكان على وعي بالظروف التي يمر بها العالم الإسلامي مما يستوجب تكاثف الجهود و غض النظر عن كل الهفوات والأخطاء، و أنه من الحكمة النظر إلى المستقبل للنهوض بالأمة .

خاتمة:

مما سبق معالجته في الفكرين المصالي والباديسي بخصوص اهتمامهما بقضايا الأمة العربية والاسلامية في المشرق والمغرب، يتضح أن القضية الجزائرية لم تكن بمعزل عن قضاياها اذ قاسمتها الهموم والنضالات عبر محطات تاريخية متتالية وتجلى ذلك في المواقف الايجابية والصريحة التي اتخذت بشأنها من قبل الشيخ عبد الحميد بن باديس و مصالي الحاج من خلال الخطاب السياسي لهما عبر منابر الصحف والتظاهرات المختلفة جاعلان في مراميهما دحر الاستعمار وتحقيق الاستقلال واسترجاع سيادة الشعوب.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الهوامش:

(1)-محمد قنانش:الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين 1919-1939،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982 ،ص42.

(2)-امحمد مالكي :الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي،ط2،مركز الدراسات للوحدة العربية،بيروت،1993،ص94.

(3)-محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، تر محمد بن البار،دار الأمة ،2011،ج1،ص248.

(4)- Haroune Ali :Messali Hadj De l'étoile Nord Africaine au MNA ;casbah,Alger 2006.P16.

(5)-يحي بوعزيز :سياسة التسلط الاستعماري،دار البصائر للنشر والتوزيع،2009 ،ص24.

(6)- Benjamin Stora :Messali Hadj1898-1974 ;poche10septembre2012 ;p112.

(7)-محمد علي داهش:الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المعرب العربي،ط1،دمشق2000،ص15.

(8)- هي جريدة نصف شهرية ظهرت من أجل جمع كلمة الشعب من أجل التحرر صدر عددها الأول 29مارس 1951واستمرت في الصدور حتى يناير 1954 ابرز كتابها من حركة الانتصار للحريات الديموقراطية ،اهتمت بالقضايا العربية والمغاربية,

(9)-عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون:الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر،المؤسسة الوطنية للكتاب 1984،ج3،ص214.

(10) -عبد الحميد ابن باديس «لمن أعيش» الشهاب ،كانون الثاني 1937 ص4 وابن باديس :اثار عبد الحميد بن باديس مج2 ،ج2 ص236.

(11)- بوعلام بلقاسمي:البعد المغاربي في ايديولوجيات الحركة الوطنية 1911-1932 ،المصادر العدد7 ،نوفمبر 2011.

(12)- الشهاب:عدد نوفمبر 1937،أنظر أيضا ابراهيم لونيسي:بحوث في التاريخ السياسي للجزائر المعاصرة دار هومة ص 2013،154.

(13)-البصائر 20 مارس 1936 ،العدد الأول 2013 ،الشهاب ج1-م12 أبريل 1936،

(14)- الشهاب: جمادى الأولى 1356 ،جويلية 1937.

(15)- ابو القاسم سعد الله:ابحاث و اراء في تاريخ الجزائر،ج4،عالم المعرفة،الجزائر،ص151-152 .

(16)-احمد مريوش:دراسات و ابحاث في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر،ج1،كنوز الحكمة،ط2013،1،ص167.

(17)-المرجع نفسه،ص154.

(18)-محمد بن سمينة:أسس مشروع النهضة عند الامام ابن باديس،ج1،منشورات المجلس الاسلامي الاعلى،الجزائر،2007،ص429.

(19)- الشهاب،ج4،م13،ربيع الثاني،1356-11جويلية 1937.

(20)- البصائر:23 جويلية 1937.

(21)-ابو القاسم سعد الله:أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر،المرجع السابق،ج4،ص151.

(22)- محمد بن سمينة : المرجع السابق:ص427.

(23)-ابو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ج4،ص155.

(24)-محفوظ قداش: المرجع السابق،الجزء الأول،ص650.

(25)-محفوظ قداش .محمد قنانش:المرجع السابق،ص108.

(26)-محفوظ قداش .محمد قنانش:المرجع نفسه،ص104.

(27)- رحيلة عامر : انفتاح التيار الوطني الاستقلالي على الفضاء العربي 1945-1954،جلة المصادر العدد6،مارس2002.

(28)-MESSALI HADJ : Les mémoires de Messali Hadj1898-1938;Edition ANEP2007 ;page 179

(29)-محفوظ قداش: المرجع السابق،ج2،ص1007.

(30)-عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون: المرجع السابق ،ج3،ص219

(31)-مناصرية يوسف:بعض وثائق حزب الشعب حول لجنة الدفاع عن فلسطين ،مجلة الدراسات التاريخية،ع3، 1987،ص25

(32)- ابن باديس:اثار ابن باديس،المصدر السابق،ص265.

(33)-ابراهيم لونيسي:بحوث في التاريخ السياسي للجزائر المعاصر،دار هومة،2013،ص152.

(34)-المرجع نفسه،ص306.

(35)- بن باديس:اثار الامام ابن باديس،المصدر السابق،ص479.

(36)- ابن باديس:حياته و اثاره،المصدر السابق،ص451.

(37)-احمد طالب الابراهيمي:اثار البشير الابراهيم،المرجع السابق،ص488.

(38)- البصائر:السلسلة الثانية 10-11، ع52،ص2.

(39)- أثار الامام:المرجع السابق ،ج6،ص20-21.

(40)-ابن باديس :المصدر السابق،ج4،ص213.

(41)-ابن باديس:آثار الامام:المرجع السابق،ص25.

(42)- بن باديس :اثار الامام :المرجع السابق،ص26.

(43)- محمد الامين بلغيث:الإمام عبد الحميد ابن باديس و ازمة التخلف الحضاري في الجزائر،مجلة الموافقات،ع1997،6،ص12.

(44)-اثار الامام:المصدر السابق،ص27-28.

(45)-ابن باديس:اثار الامام بن باديس ،ج5،المصدرالسابق،ص388.

(46)-ابن باديس:حياته و اثاره،ج4،المصدر نفسه،ص213

(47)- ابن باديس:اثار الامام بن باديس ،ج3 ،المصدر السابق،ص123.

(48)- ابن باديس:اثار الامام بن باديس،المصدر السابق،ص124.